الأمثال العـــامية
في الحياة السودانية

للاستاذ على العمارى

لست أعرف فى الفنون الكلامية فناً أدل على حياة الأمة وأصدق تعبيراً عن خوالجها وميولها من الأمثال العامية ، فقد يصدق الشعر عن حياة الأمة وقد يكذب ، وقد تصطبغ الرسالة والمقالة بطابع الأمة ، وقد تقمان بعيداً عن هذا الطابع ، أما المثل فمن الأمة وإلى الأمة ، لا يعبر ألا عن آلامها وأفراحها ، ولا يصور إلا نوع حياتها التى تحياها ، بل هو كثيراً ما يصور دقائق هذه الحياة ، ويصل إلى أبعد أعماقها . وإذا كان الشعر يدور حوله فى حدود ضيقة ، ويقتصر على طبقة خاصة من الشعب ، فإن المثل هو العملة الكلامية الوحيدة التى يتعامل بها جميع الأفراد ، فالمثل الذى يستشهد به الأستاذ فى درسه ، أو القاضى فى محكمته ، أو الحاكم فى إدارته ، هو المثل نفسه ، بلفظه ومعناه ، الذى يلقيه الفلاح فى غيطه ، والصانع فى مصنعه ، والراعى خلف إبله أو غنمه ، والمثل فى كل ذلك لا يفقد شيئاً من قوته ودلالته . فهو يهدى إلى الطريق ، ويحمس الجبان ، ويدفع البخيل إلى الجود ، ويبلغ فى أثره مالا تبلغه القصيدة من الشعر . والأمثال إنما تنشأ من التجارب ، وربما عبرت عن الحقائق الإنسانية الكبرى ، وهذه الحقائق من القدر المشترك بين كثير من الأمم ، لذلك نجد أمثالا شائعة معروفة فى أمم مختلفة ، تتشابه فى المعنى ، وفى الغرض ، وتختلف فى طريقة الأداء ، فيبدو فى أدائها مزاج الأمة وطبيعة حياتها ، فالأمم الزراعية مثلا يتكون كثير من أمثالها من كلمات زراعية .. وهكذا .

وقد تتقارب حياة أمتين أو أكثر تقاربا كبيراً وتشتبه فى كثير من الأمور ، فنجد أمثالا غير قليلة متشابهة عندهما ، وربما اختلفت هذه الأمثال أيضاً فى طريق أدائها ، ولكن اختلافها حينئذ يكون أقل ، وبعض الأمثال خاص ببعض الأمم لا تجده فى غيرها ، نتيجة لظروف حياتها الخاصة .

والباحث فى أمثال أمة من الأمم ليستدل منها على حياة الأمة ، وفلسفتها الخاصة ، يحتاج إلى جهد كبير حتى يكون بحثه وافياً شاملاً ؛ فهو فى حاجة إلى أن يستقصى الأمثال ، ويجمعها كلها ، ثم ينظر فيها على ضوء ما يعرفه من المظاهر المختلفة فى حياة الأمة ، من أخلاق وعادات وتقاليد ، ويرجع كل مثل إلى جدوله الذى انفصل منه ، وسوف يجد فى النهاية — إذا كان دقيق الموازنة والاستقصاء قوى الملاحظة — أن الأمثال صورة صحيحة لكل ما يجرى فى عروق الأمة من عواطف وميول ، وما يحيط بحياتها من مد الأيام وجزرها ولكن ليس ذلك فى استطاعة باحث عابر ، يكتفى بالاشارة ، ويقتصر على النموذج والمثل .

ولا شك أننا نستطيع أن نستخرج كل مظاهر الحياة السودانية من الأمثال العامية . ولنمط القارىء على ذلك أمثلة قليلة لهذا النهج من البحث ، فالمثل السودانى الشائع (ود العرب دولته يوم عرسه ويوم طهوره) يعطينا فكرة صحيحة عن العادات السودانية فى الأفراح من اقامة الاحتفالات أياماً عديدة ، يكون فيها العريس موضع التجلة والإحترام من الجميع رجالا ونساء ، ويكون مخدوما مطاع الكلمة حتى أنه يتخذ لنفسه وزيراً يكون له عيوناً فى جميع أموره ، ويستشيره فى الصغير والكبير منها ، ويكون للعريس دالة على أقربائه وأصدقائه لا يحلم بها بعد اليوم من حياته ، وفى ذلك يقول الشيخ عبدالله عبد الرحمن مهنئاً أخاه أحمد وذاكرا هذه العادة :

هات اسقنى حلب العصير حمراء كالخد النضير
وادع الخلاعة والصبا واهتف بحى على السرور
وأقم لأحمد من بيوت الشعر أمثال القصور
كاد العريس يكون ملكا فى مواتاة الأمور
أو ما تراه ملقيا بمهمه نحو الوزير
فكأنه فى وقته رب الخورنق والسدير

ومع دلالة هذا المثل على هذه العادة فإنه يحمل كثيراً من الحسرة الكمينة فى نفوس القوم ، ويدل على ما يكابدونه من مضض تأسفا على المجد الضائع ، والدولة الزائلة . وهل أدل على الحسرة والألم من أن (ود العرب) لا دولة له ، ولا صولة إلا فى

هاتين المناسبتين ، يوم عرسه ، ويوم طهوره .

والرقيق كان منتشراً فى السودان ، تعرف ذلك من أمثالهم الكثيرة فيه ، وتجارته فى بعض الأحايين كانت غير رابحة ، والمثل يقول : تاجران لا يربحان ، تاجر الهف ، وتاجر الكف ، والهف الحبوب ، والكف يريدون بها الرقيق ، وثمن الرقيق — فى بعض الأوقات — كان زهيداً جدا ، بدليل المثل : (فكة ربق، أخير من راس رقيق) وفكة الربق ، الطعام القليل الذى يتناوله الانسان فى الفطور .

وتأخذ أمثالهم فى الصديق ، فتؤلف منها قواعد وأصولا وأسساً تقوم عليها الصداقة الحقة ، ولهم عناية بهذه الناحية لأن الصداقة من الأمور اللازمة لحياتهم ، فأهل السودان أكثر الشعوب مجاملة — فيما أعرف — وقياماً بالواجب ، وهم لا يفرطون فى شىء من ذلك فى الأفراح أو فى غيرها . والكرم فيهم طبيعة غالبة ، والضيافة من الأمور المادية ، ومن شأن كل هذه الأشياء أن تقرب بين القلوب ، وأن تنشىء صداقات كثيرة ، لذلك نجد لهم أمثالا كثيرة فى هذه الناحية ، وبالنظر فيها نجدها مصورة لكل ما يحيط بهذا المعنى الكريم (فالرفيق قبال الطريق) . (ومابة صاحب ولا عدو واحد) . و (ايد على ايد تجدع بعيد) ومعنى تجدع تقذف ، و (العود الواحد ما بيوقد نار) كل هذه الأمثال ترغب فى اتخاذ الصديق، وتحبب فى الإكثار منه ، ولكن هل يصادق الرجل كل الناس؟ لا . (فالخلا ولا الرفيق الغسل) فليتحمل المرء وحشة الخلاء ، وما فيه من متاعب ، فإنه خير له من أن يزامل رجلاً بخيلاً لا مروءة له ، ولا رجولة فيه ، ولا معاونة ترجى منه (وخصام الرجل الذكر ، ولا صحبة الرجل الأصينة) والأصينة : الجبان ، وصحبته عار ، ولكن خصومة الرجال الأحرار شرف وأى شرف . فإذا اختار الإنسان صديقه ، ووفق فى اختياره ، فليجعله كنفسه ، والمثل السودانى يقول : (ربك وصاحبك ما عليهم مدسة) وليحافظ على صداقته ما استطاع ، ولا يطمع فى شىء من ماله أو نفسه (فالطمع على الرفيق أخير منه القماح) وليهن إذا اشتد (فالحبل بين فاضلين ما بينقطع) وعلى الانسان أن يعرف أن الصداقة تحتاج إلى كثير من المصابرة، وأن الأصدقاء ليسوا ملائكة ، وأنه يجب ألا يحاسب أصدقاءه على الصغيرة والكبيرة ، فإنه حينئذ لا يجد صديقا ، وهذا معنى المثل السودانى (اللي ما يبلع ريق على ريق ما يلقى رفيق) وفى معنى هذا المثل طال كلام العرب شعرهم ونثرهم :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت، وأى الناس تصفو مشاربه

ولعل من أبدع ذلك ما بعث به أحمد الكتاب إلى صاحبه منذ ألف سنة يقول : « فأما الانصاف فى الصداقة فهو ضالتى عند الأصدقاء ، ولا أقول :

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو أن كدرت عليه

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والاخوان إخوان ، وحسن العشرة سلطان ، ولكنى أقول : وإنى لمشتاق إلى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهدا يعطى ويأخذ منك بالميزان
فإذا رأى مثقال حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

وقد كنا نقترح الفضل ، فأصبحنا نقترح العدل ؛ وإلى الله المشتكى لا منه » .

هذا ، وإنا لنجد فى الأمثال السودانية ظاهرة بيانية طيبة هى ميلها إلى التشبيه فى بعض الأحايين ، فمن أمثالهم (الإبرة مابتشيل خيطين ، والقلب ما يسع اتنين) فالمقصود من المثل هو الجزء الثانى ، ولكن جاءوا بالأول ليدلوا به على صدق الثانى ، وأنه من غير الممكن أن يسع القلب اثنين ، كما أنه من غير الممكن الذى يشاهده كل انسان أن الإبرة لا تسع خيطين . ومن أمثالهم (رفيق اتنين كداب ، وراكب سرجين وقاع ، وماسك دربين ضاب) فالمقصود تصوير خال المنافق الذى يجمع فى الصداقة بين اثنين مختلفين، متعاديين ، ويزعم لكل منهما أنه صاحبه ، والأثير عنده ، فهذا كذاب ، وهو شبيه بمن يركب سرجين ، أو من يسير فى دربين ، فهذا كثير الضلال ، وذاك كثير الوقوع، ومنها (صاحبك أن أباك قلل عليه الحوم ، وباطنك إن وجع كتر عليه الصوم) لا شك أنهم يقصدون إلى أن ينصحوا فى شأن الصاحب، حين تظهر منه الكراهية والتجنب ، وأن خير علاج لهذه الحالة أن يقلل الانسان من الاتصال به ، فإن ذلك أدعى إلى أن تعود بينهما الألفة ، وهم يذكرون تشبيهاً صحيحاً حسنا لهذه الحالة ، فالمعدة إذا فسدت لا يصلحها إلا الإقلال من الطعام ، وهو تشبيه